اعتبار اللاسلامية المتأصلة في نفوس الاغيار هي الحافز على ولادة الصهيونية؛ كما تدحض المقولات الصهيونية كافة القائمة على الخصوصية والتفوّق ونقاوة السلالة، وعلى «العودة» و«الحنين» و«أرض الميعاد». «والواقع ان الصهيونية لم تفكر، يوماً من الايام، في ان تعالج قضية المشرّدين اليهود على أساس أنها قضية انسانية... لأن هدفها الرئيس هو انعاش اليهودية الوطنية، ودفعها الى انشاء هذا الوطن على اشلاء الانسانية». وقد ردّدت هذا الصدى رئيسة المنظمة اليهودية في اميركا، السيدة ابشتاين، اذ كتبت في أحد خطاباتها: «ان الحركة الصهيونية هي برنامج ثوري، غايته تحسين أوضاع اليهود في العالم، وخلق دولة لهم»[٢٨].

لقد ظهر ان التباكي الصهيوني على الشعب اليهودي المضطهد انما كان وسيلة الى تحقيق البرنامج الصهيوني؛ اذ لم يعد ثمة مبرر، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، للهجرة. فموريس ارنس، الذي اتصل بالمتنفّذين اليهود في اوروبا لاقناعهم بقبول ملجأ للمشردين اليهود اسوة بغيرهم في اميركا، جوبه برفض قاطع. وقد كتب آنذاك واصفاً نتيجة اتصالاته بأصدقائه المقرّبين من اليهود ما نصه: «لقد صُعقت لأقوال اولئك الاصدقاء عندما ذكروا لي، بكل صراحة، ان مساعيّ في سبيل انجاح برنامج جميع مشردي اوروبا هو خيانة لليهودية...! واني، بعملي هذا، ابغي القضاء على الحركة الصهيونية»[٢٩].

والصهيونية لفظة اطلقها المفكر اليهودي ناتان برنباوم نسبة الى جبل صهيون لتدل على الحركة الهادفة الى تجميع اليهود في فلسطين، لاعتبارات دينية مؤداها ان المسيح المخلّص سيأتي، في آخر الايام، «ليعود بشعبه الى ارض الميعاد، ويحكم العالم من جبل صهيون». غير ان الصهيونيين حوّلوا المعتقد الديني الى برنامج سياسي؛ كذلك حوّلوا الشعارات والرموز الدينية الى شعارات ورموز دنيوية سياسية، زاعمين ان الاقليات اليهودية في العالم لا تشكل اقليات دينية ذات انتماءات عرقية وقومية مختلفة، انما تشكل «أمة» متكاملة توجد في الشتات بعيدة من «وطنها الحقيقي، أرض الميعاد». وهي، بذلك، «تعاني من مأساة الغربة والاضطهاد».

وفي المعتقد الديني اليهودي ان العودة الى فلسطين لا يمكن ان تتمّ الّا بمجيء المسيح المنتظر، وليس على يد حركة سياسية مثل المنظمة الصهيونية العالمية. لذا، عارضت الجماعات الدينية هذه العودة معتبرة ايّاها هرطقة[٣٠]. ومن هذه الجماعات جماعة ناتوري كارتا التي حاربت، وتحارب، اقحام حل سياسي لمقولة «المخلّص المنتظر». وهرتسل نفسه أقرّ بأن المسألة اليهودية ليست دينية في الغالب، مشدّداً على الطابع «القومي» السياسي. كتب: «انا اعتبر ان المسألة اليهودية ليست مسألة اجتماعية، او دينية، مع انها تتخذ هذين الطابعين وغيرهما في بعض الاحيان. انها مسألة قومية. ولايجاد حل لها، علينا ان نجعل منها قضية سياسية تجتمع الدول المتحضرة لمناقشتها وايجاد حل لها»[٣١].

ورأى المؤرخون المثاليون في استمرار خصوصية وضع اليهود عبر التاريخ انه «نتيجة لما برهنوا عليه من اخلاص لدينهم، او لقوميتهم عبر القرون»[٣٢]. الّا ان الاختلاف في آراء هؤلاء المؤرخين قد ظهر عند التطرق الى تحديد الهدف[٣٣]، الذي بسببه حافظ اليهود على دينهم وقاوموا الاندماج. وقد أوضح ابراهام ليون خطأ التفسيرات المثالية بقوله: «ان درس الدور الاقتصادي لليهود هو، وحده، الذي يسهم في توضيح اسباب المعجزة اليهودية»[٣٤]. وهذا يقتضي درساً عميقاً للتاريخ اليهودي، لفهم المسألة اليهودية، في عصرنا الحاضر[٣٥]، وهو الامر الذي كان أول من تنبّه اليه ماركس في